حركة التوابين وآثارها الأدبيــة

خُطب ورسائل زعمائها

" جمع ودراسة "

د/محمود رزق حامد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين - بدسوق

مقدمـة

الحمد لله الذي اقتضت حكمته أن يهب ذوي اللسن والألباب من الذكر عمراً ثانياً، فلم تقدر أيدي الأحقاب – مع تطاولها – أن تطوي آثارهم، والصلاة والسلام على خير نبي أرسل بخير كتاب أنزل ،وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد ..

فقد نشأت الخطابة مع تكوّن المجتمعات البشرية الأولى، حيث برزت الحاجة إليها، ويعتبر الأنبياء – عليهم السلام – هم أقدم خطباء البشرية؛ بما كانوا يقومون به من أدوار التوجيه والإرشاد للمجتمعات البشرية عبر العصور وبمختلف اللغات وتباين الثقافات .

ومعلوم أن الحياة الأدبية في كل العصور تتأثر بالمجتمع، وتصطبغ الفنون الأدبية بواقع مؤثراته الاجتماعية، وتياراته السياسية، وقد استجد في العصر الاموي – مع كونه امتدادا للأحداث الخطيرة التي اجتاحت العالم الإسلامي في أواخر العهد الراشدي – أحداث جسيمة كان لها أثرها البيِّن في الحياة عامة؛ وفي الحركات السياسة والتيارات الفكرية خاصة، إذ نجم عن ذلك الاضطراب السياسي ظهور أحزاب وكتل وفِرَق إضافة إلى ما كان موجوداً منها قبل ذلك، هذه الأحزاب وتلك الكتل والفرق استفحل أمرها وتفاقم خطرها، وتعقدت آراؤها بما أوجد تصاعداً للخلافات، ونشوباً للحروب مع بعضها البعض، ولم تكن تلك الأحزاب والثورات تستعين في حروبها بالسيوف فحسب ؛ بل كانت تستعين بسلاح آخر هو سلاح الخطابة .

تلك الظروف وما نتج عنها ؛ كانت مصدر إلهام للأدب في عمومه، ولبعض فنونه خاصة لا سيما الخطابة والرسائل، فالخطابة

اتصلت اتصالاً مباشراً بتلك الأحداث ونمت بنموها، وترقت بوجود تلك البيئة الخصبة لها، وازداد نشاط الخطباء في تلك المواقف التي تحتاج إلى مواجهة حاسمة أو إقناع مباشر لقدرة ذلك الفن على التأثير والإقناع بعد محاججة، كذلك صارت الرسائل أداة مهمة في لجة ذلك الصراع السياسي المحتدم المتشابك .

وبناء على ما سبق فقد آثرت كتابة هذا البحث " حركة التوابين وآثارها الأدبية – جمع ودراسة لخطب ورسائل زعمائها " لتسليط الضوء على نشوء حزب سياسي متخذاً من مقتل الحسين سبباً لثورته على الحزب الحاكم، ولجمع ما ترك زعماء هذا الحزب(الحركة) من أثر أدبي تمثل في خطبهم ورسائلهم ، ثم دراسة هذا الأثر دراسة تعكس صورة من صور العصر الذي عايشته وما اتسم به من سمات .

واقتضت طبيعة البحث في هذا الموضوع تقسيمه إلى : مقدمة وتمهيد وفصلين بما اشتملا عليه من مباحث ثم خاتمة وثبت بالمراجع.

جاءت المقدمة منبئة عن سبب اختيار الموضوع .

وجاء التمهيد ليسلط الضوء على حالة العصر، والسبب وراء نشوء تللك الحركة(التوابون).

ثم كان الفصل الأول بعنوان : خُطب ورسائل زعماء التوابين، وجمعت فيه خطب ورسائل زعماء الحركة استقصاء .

أما الفصل الثاني فيدور حول الدراسة الفنية لتلك الخطب والرسائل .

ثم كانت الخاتمة وفيها أجملت بعض ما توصلت إليه الدراسة .

ومن الله نستمد العون والسداد ، فهو – سبحانه – نعم العون والسند والنصير

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تمهـــــــــيد

(١)

لمَّا قتل عثمان –رضي الله عنه –لم يكن بُد مـــن اختيـــار خليفة للمسلمين، فبويع عليّ – رضي الله عنه – بيعة لـــم تكتمـــل ، إذ تأبت مكة على البيعة لأن بها كثيراً من أنصار عثمان ، كذلك انشـــق عليه معاوية بالشام وكان عظيم النفوذ هناك ، وجعل معاوية يطالب بدم عثمان ويحمِّل عليّا جريرة مصرعه ، وينادي في الناس بأنـــه قريـــب عثمان وولي دمه ، وقد قتله الثوار مظلوماً ، وأن علياً إذا لم يكن قـــد حرَّض على قتل عثمان فإنه تخلى عن نصرته وحمايته ، ولهذا رفض معاوية أن يبايع علياً ، وتمادى في دعواه وخرج لقتاله في موقعة الجمل (٣٦هـــ) وانتصر عليٌّ فيها ، ثم تجدد الصراع في صفين (٣٧هـــ) وكاد النصر يتم لعليٍّ لولا حيلة فعلها قائد جيش معاوية " عمـــرو بـــن العاص " وهي رفع المصاحف وكان التحكـــيم وخلـــع علـــي وتثبيـــت معاوية .

كان معاوية قد أرسل كتاباً إلى عليٍّ (فلما أتى عليـــاً الكتـــابُ ورأى ما فيه وما هو مشتمل عليه ، وكره ذلك؛ قام فأتى منزله فـــدخل عليه الحسن ابنه فقال له : أما والله كنت أمرتك فعصيتني ، فقال لـــه عليٌّ: وما أمرتني به فعصيتك فيه؟ قال: أمرتك أن تركـــب رواحلـــك فتلحق بمكة المشرفة ... فقال له عليٌّ ، أنا إذن مثلك ، لا والله يا بني ، ولكن أقاتل بمن أطاعني من عصاني، وايم الله يا بني ما زلـــت مبغيـــاً عليّ منذ هلك جدك، فقال له الحسن : وايم الله يا أبت ليظهـــرن عليـــك معاوية ، لأن الله تعالى قال : (وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا

)[١] فقال عليٌّ : يا بني ، وما علينا من ظلمه، والله ما ظلمناه ولا أمرنا ولا نصرنا عليه ...) [٢].

وكان عليٌّ قد ترك المدينة وخرج منها إلى البصرة ثم الكوفة واختارها مركزاً له وعاصمة لخلافته، وصارت العراق والكوفة بخاصة موئل الشيعة، ومصدر الثورات على بني أمية، في حين استأثر معاوية ببلاد الشام وحدث ما حدث بينهما من حروب واقتتال.

ثم قُتل عليٌّ بن أبي طالب سنة ٤٠هـ في شهر رمضان (وكان سبب قتله أن عبدالرحمن بن ملجم المرادي ، والبُرك بن عبدالله التميمي الصريمي... وعمرو بن بكر التميمي السعدي ،وهم من الخوارج اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس وعابوا عمل ولاتهم ثم ذكروا أهل (النهروان) فترحموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم : فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلالة وأرحنا منهم البلاد !

فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم عليًّا ... وقال البُرك بن عبدالله : أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص، فتعاهدوا وتواثقوا الله أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، وأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان[٣].

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٣

(٢) الإمامة والسياسة لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري صـ٤٥ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجذري م٣ صـ ٢٥٥ تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي – ط دار الكتب العلمية – بيروت. وينظر أيضا (تاريخ الأمم والملوك " تاريخ الطبري " لمحمد بن جرير الطبري م٥ صـ١٤٣ ط دار سويدان – بيروت ، وينظر تاريخ اليعقوبي لأحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي البغدادي جـ٢ صـ١٤٧ ط دار الكتب العلمية – بيروت ، وينظر الإمامة والسياسة لأبن قتيبة صـ١٢٠)

فقدم عبدالرحمن بن ملجم الكوفة وأقام بها حتى حان الموعد، فقعد لعليٍّ حين خرج لصلاة الصبح في الغلس، فوثب عليه فضربه بالسيف فقتله وهو يقول : (الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك)[١] .

أما صاحب معاوية فضربه فوقعت الضربة على إليته وبادر فدخل داره، وأما صاحب عمرو بن العاص فإنه ضرب خارجة بن حذافة خليفة عمرو في الصبح، وكان عمرو تخلف لعلة، فقال الخارجي أردت عمراً وأراد الله خارجة)[٢]

(٢)

قتل عليٌّ بن أبي طالب، وثار الناس وبايعوا ولده الحسن، وفي الوقت نفسه كان معاوية قد بويع بالخلافة في الكوفة وقيل في الشام، فلما بلغ الحسن مسير معاوية إليه تجهز هو والجيش وسار عن الكوفة للقاء معاوية، فلما رأى الحسن تفرق الأمة عنه – لأنه أيقن بعد أن خذله أهل العراق أن لا طاقة له بمعاوية وجنده – اضطر الحسن بن عليٍّ إلى التنازل عن حقه في الخلافة، وكتب إلى معاوية وذكر شروطاً وصالحه على أن يكون المسلمون بعد موت معاوية أحراراً في اختيار من يولونه عليهم، وبايعه الحسن على غير رضا من أتباعه من الشيعة ولا من أخيه الحسين، حتى أنكر عليه (سليمان بن صرد وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم فدخل على الحسن فقال: السلام عليك

(١) ينظر المراجع السابقة مع ذكر تفاصيل كثيرة في ذلك.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ صـ١٤٨.

يا مذل المؤمنين ...)[١] (أويا مذل العرب)[٢] أو (يا مسود وجوه المسلمين)[٣] ثم خرج الحسن إلى المدينة وظل بها حتى مات.

قامت الدولة الأموية سنة ٤١هـ (وقد استطاع معاوية أن يستأثر بالخلافة ليُقرها في البيت الأموي ... ولم يلبث معاوية إلا قليلاً حتى شرع يوطد الملك لابنه يزيد ويعهد إليه بولاية العهد في حياته)[٤]، كما لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن بن عليٍّ إلا يسيراً حتى بايع لابنه يزيد بالشام وكتب بيعتهُ إلى الآفاق(فلما مرض المرض الذي مات فيه دعا ابنه يزيد فقال:(يا بني إني قد كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك الأمور ، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك مالم يجمعه أحد، فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، وأكرم من قدِم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظرْ أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل؛ فإن عزل عامل أيسر من أن يُشهَر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم، وإني لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالرحمن بن أبي بكر، فأما ابن عمر ....وأما الحسين بن علي فهو رجل خفيف، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً

(١) الإمامة والسياسة صـ١٣٣.

(٢) تاريخ الطبري م٥ صـ١٦٥.

(٣) الكامل في التاريخ م٣صـ٢٧٤.

(٤) أدب السياسة في العصر الأموي / أحمد محمد الحوفي صـ٢٠ ط٥ دار النهضة مصر.

ماسة، وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد – صلى الله عليه وسلم –...)[١] ثم مات معاوية بدمشق .

(٣)

بويع يزيد بن معاوية ... وأخذ يزيد لابنه معاوية بن يزيد البيعة على الناس قبل موته [٢] ولم يكن ليزيد همَّة حين وليّ إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان على المدينة يخبره بموت معاوية ، وكتاباً آخر" صحيفة كأنها أذن فأرة"[٣]:(أما بعد فخذ حسيناً وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام)[٤] .

فورد الكتاب على الوليد، فوجه إلى الحسين وإلى عبدالله بن الزبير فأخبرهما الخبر؛(فقالا : نصبح ونأتيك مع الناس، أو قال الحسين أخرني وارفق فأخره ، فخرج الحسين إلى مكة فأقام بها أياماً ، وكتب أهل العراق إلية وأتاه أهل الكوفة ورسلهم[٥] – لما علموا بامتناعه عن البيعة ليزيد– أن أقدم علينا فإنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي فحي هلا فإن الناس ينتظرونك لا إمام لهم غيرك فالعجل ثم العجل[٦].

(١) الكامل لابن الأثير م٣ صـــ٣٦٨ ، تاريخ الطبري م٥ صـــ٣٢٢.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر – لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي م٣ صـــ٦٦ شرحه وقدم له مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) تاريخ الطبري م٥ صـــ٢٢٨

(٤) السابق م٥ صـــ٣٣٨ ، الكامل لابن الأثير م٣ صـــ٣٧٧.

(٥) تاريخ الطبري م٥ صـــ٣٤٧ ، تاريخ اليعقوبي ب٢/صـــ١٦٨.

(٦) تاريخ الطبري ٣٥٣/٥ – اليعقوبي ١٦٩/٢

فوجه إليهم الحسين مسلم بن عقيل بن أبي طالب وكتب إليهم ، وأعلمهم أنه إثر كتابه، فلما قدم مسلم الكوفة اجتمعوا إليه فبايعوه وعاهدوه وأعطوه المواثيق على النصرة والمشايعة والوفاء.

وأقبل الحسين من مكة يريد العراق ، وكان يزيد قد ولَّى عبيد الله بن زياد العراق(الكوفة)، فقتل مسلم بن عقيل ولم يعلم الحسين بقتله قبل أن يخرج، فنصحه ابن عباس بعدم الخروج، وكذلك ابن الزبير مع أنه كان يرجو خروجه لأنه يعلم أن الناس لا تعدله به ما بقي الحسين.

خرج الحسين في اثنين وسبعين رجلاً من أهل بيته وأصحابه ونسائه ... فلما بلغ موضعاً قرب الكوفة علم بمقتل مسلم بن عقيل ، ولقى الحسين جيش عبيد الله بن زياد بكربلاء وعليه عمر بن سعد بن أبي وقاص وقبله الحُر بن يزيد، فمنعوه الماء وحالوا بينه وبين الفرات وظلوا يقاتلونه حتى قتلوه وأغلب أهل بيته، وحُزَّت رأسه وذُهب بها إلى ابن زياد ثم إلى يزيد(١) فجعل يُدخل الناس والرأس بين يديه، ومعه قضيب وهو ينكت به ثغر الحسين، وعنده – حينئذ– أبو برزة الأسلمي فقال له: ارفع قضيبك فوالله لربما رأيت فا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على فيه يلثمه(٢) أو قال له: "أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين؟ أما لقد أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً لربما رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يرشفه، أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ويجيء هذا ومحمد شفيعه" ثم قام فولَّى(٣).

(١) ينظر اليعقوبي ٢/ ١٦٩ ، تاريخ الطبري ٥/ ٣٨٧ وما بعدها ، مروج الذهب ٣/ /٦٧ وما بعدها ، الكامل ٣/٣٨٥ وما بعدها

(٢) الطبري ٥/٣٩٠

(٣) الكامل ٣/ ٤٣٨

(٤)

كان مقتل الحسين بن علي – رضي الله عنه – عام ٦١هـ أمراً عظيماً صدم المسلمين، لاسيما الشيعة والعلويين في كل أنحاء الدولة الإسلامية، والعراق بخاصة لما عُرفت به من تشيعها وميلها لعليٍّ بن أبي طالب وأبنائه – عليهم السلام – وكانت الكوفة – بعد واقعة كربلاء – تتحسس أكثر من غيرها ثقل الذنب، ومرارة الندم بوصفها طرفاً مباشراً في قضية سبط النبي– صلى الله عليه وسلم – الأمام الحسين (عليه السلام) .

يقول شوقي ضيف : " ولا نتقدم إلى عصر يزيد بن معاوية حتى يرسل شيعة "عليٍّ" إلى ابنه الحسين أنه يفد عليهم في الكوفة لمبايعته وإعلان الثورة على بن أمية وصاحبهم يزيد، وما يكاد يلم بالعراق حتى يقعدوا عن نصرته فيسفك دمه، ويندمون على ما كان من تضييعه، ويتجهون إلى الدعوة السرية لأبناء علي ومن حين إلى حين تنشب ثوراتهم) [١]

فالكوفة – إذن – هي التي ألحت عليه بالخروج إليها، وكان أهل الكوفة هم أكثر من فُجعوا وتألموا عقب مقتل الحسين، وذلك لأنهم راسلوه ووعدوه بالنصرة والتأييد والقتال في صفه ضد الأمويين ، ثم تقاعسوا – في أحرج الظروف والمواقف – عن الالتزام بما وعدوا به، والوفاء بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم، فكان من الطبيعي أن يحس الكثير من الكوفيين بالندم والحسرة على تخاذلهم عن نصرة الحسين، فحاول عدد منهم أن يبحث عن سبيل للتكفير عن ذنبه وغسل يديه من

(٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي – صـ٦٤ ط ١٠ ط دار المعارف.

دم الحسين الذي افتقدوا بمصرعه الشخصية الأكثر جدارة، والتي وضعت فيها الشيعة كل آمالها وطموحها في الوصول للحكم والخلافة.

كانت تلك المشاعر سبباً في تجميع عدد كبير من رجال الكوفة وعرف هؤلاء باسم "**التوابين**"، وهم الذين رأوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتل الحسين؛ إلا بقتل من قتله، أو القتل فيه(أي يُقتلون حين يثأرون له)، وكثيراً ما كانوا يرددون في مجالسهم قول الله تعالى: " فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم"[١] حتى إن أحد زعمائهم قال في إحدى خطبه:(... وكونوا كالأولى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم " إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ...)[٢] فسموا بالتوابين لذلك[٣] .

أخذ التوابون " أنصار الثورة الحسينية " يجتمعون – بعد مقتل الحسين – بشكل سري تام خوفاً من الأمويين، ومن عاملهم على الكوفة عبيد الله بن زياد، وعند الاجتماع يعقدون مناقشات أشبه ما تكون بالنقد الذاتي، وذلك لمحاسبة أنفسهم على التقصير الذي أظهروه إزاء الحسين " عليه السلام " والتشاور في كيفية التكفير عن الذنب، وغسل العار الذي لحق بهم نتيجة هذا التخاذل.

---

(١) سورة البقرة آية ٥٤.

(٢) تاريخ الطبري جـ٥ صـ٥٥٤.

(٣) كل المراجع التي ذكرت أخبارهم ذكرت هذه التسمية " التوابين " ومنها، تاريخ الطبري م٥ طـ٥٥، الكامل في التاريخ لأبن الأثير م٢ صـ٤٨٦، تاريخ اليعقوبي، تاريخ الإسلام الياس محسن إبراهيم حسن جـ١ صـ٣٤١ ، أدب السياسة في العصر الأموي لأحمد العوفي، الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف : مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي م٢٣ الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري.

جاء في تاريخ الطبري : لما قتل الحسين بن عليٍّ (تلاقت الشيعة بالتلاؤم والتندم، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين إلى النصرة وتركهم إجابته، ومقتله إلى جانبهم ولم ينصروه، ورأوا أنه لا ينغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه)[١]

وتزعم التحرك الشيعي حينئذ خمسة من كبار الزعماء الكوفيين المتقدمين في السن ، الذين ارتبطوا تاريخياً بالحركة الشيعية وهم :

- سليمان بن صُرَد الخزاعي
- المسيِّب بن نَجَبة الفزاري
- عبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي
- عبدالله بن وال التميمي
- رفاعة بن شدَّاد البجلي

وكانوا جميعاً رفاق الإمام عليٍّ، ومن أشد المؤيدين له، ومنهم من كان كثير التردد في مناصرته على أعدائه فقال لهم في خطبته الطويلة التي بدأها بقوله : (فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ... فقبحاً لكم وترحاً [٢] حين صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزُون، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حَمَّارة القيظ [٣] أمهلنا يسبَّخ[٤] عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبَّارة القُر [٥] أمهلنا ينسلخ عنا البرد،

---

(٤) تاريخ الأمم والملوك – محمد بن جرير الطبري حـ٥ صـ٥٥١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار سويدان بيروت.

(١)الترح : الهم والحزن والفقر.

(٢)حمارة القيظ : شدة الحر.

(٣)التسبيخ : التخفيف والتسكين.

(٤)صبارة القر. شدة البرد .

كل هذا فراراً من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون؛ فإذا أنتم والله من السيف أفر، يا أشباه الرجال ولا رجال ...)[١] .

وقد تزعم حركة التوابين – كما سبق – هؤلاء الخمسة، وعرفوا بنصرتهم للبيت العلوي، والاشتراك في معارك على بن أبي طالب ضد الخارجين عليه زمن خلافته، فأبلى البلاء الحسن في موقعتي(الجمل ٣٦هـ وصفين ٣٧هـ) فبدأ الزعماء الخمسة يمارسون نشاطهم في الخفاء، ويبشرون بدعوتهم الانتقامية في أوساط الشيعة بعيداً عن مراقبة السلطة وجواسيسها المنتشرين في كل مكان، فكان أن أثمرت جهودهم، وشكلوا ما يشبه منظمة سرية نواتها نحو مائة معارض، ولم تلبث حتى تحولت إلى منظمة كبرى تحمل اسم" التوابين" فجمعوا الأنصار معتمدين على مالهم من قدرة على الأقناع خطابة وشعراً.

(٥)

بعد وفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية عام ٦٤هـ أصبحت الفرصة سانحة أمام التوابين للجهر بدعوتهم، خصوصاً أن القبضة الأموية على الكوفة قد ضعفت عقب وفاة يزيد، وجراء التخبط الحاصل في البيت الأموي، وإعلان "عبدالله بن الزبير" نفسه خليفة للمسلمين، وأمام تلك المتغيرات السريعة دعا التوابون إلى الأخذ بثأر الحسين بن عليٍّ، وانضم إليهم الكثير من الرجال ورفع هؤلاء شعار " يالثارات الحسين"، لتصعيد حركة النضال الشيعي ضد الأمويين "أعدائهم" وليثبتوا أنهم غير ساعين إلى مطلب خاص أو مكسب شخصي، وإنما طلاب قضية عامة هدفها :

(٥) نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده صـ٥٧ ط المكتبة العصرية– بيروت .

أولاً : الانتقام للحسين الذي هو رأس الحركة الشيعية ورائدها في تحقيق أمانيها .

ثانياً : إزاحة الأمويين عن السلطة في الكوفة وتحويلها إلى قاعدة للحكم الشيعي الذي ينبغي أن يسود في مختلف أقاليم الدولة.

وكان بنظرهم أن السكوت عن هذه المطالب وتخليهم عنها يعد خيانة لقضيتهم، وتخلياً عن حق شرعي، وخرقاً لحق إلهي، ولا شك أن هذا التجانس النوعي في صفوف التوابين كان له بعدُ خاص كرَّس أكثر فأكثر مفهوم التضحية والفداء.

وكان أهل الكوفة قد أخرجوا الأمويين من مدينتهم واستطاع عبدالله بن الزبير أن يمد سيطرته ونفوذه – في تلك الفترة – إلى العراق، وبعث عبدالله بن يزيد الأنصاري والياً من قِبَله على الكوفة، ولم يحاول عبدالله بن يزيد أن يصطدم مع قوة التوابين، وذلك لأنه كان يدرك أن تلك القوة موجهة في المقام الأول إلى عدو مشترك هو العدو الأموي، ويظهر ذلك بوضوح عندما حاول بعض وجهاء الكوفة أن يؤلبوا عبدالله بن يزيد لقتال التوابين فكان رده عليهم:(الله بيننا وبينهم، إن هم قاتلونا قتلناهم، وإن تركونا لم نطلبهم ...)[1]. حكى الطبري قال:(وأتى يزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيباني عبدالله بن يزيد الأنصاري فقال : إن الناس يتحدثون أن هذه الشيعة خارجة عليك مع ابن صرد، ومنهم طائفة أخرى مع المختار[2] ، وهي أقل الطائفتين عددا

(١) تاريخ الطبري حـــ٥ صـــ٥٦١.

(١)يقصد المختار بن عبيد الثقفي من شيعة الحسين، سجنه عبيد الله بن زياد ثم عفا عنه ونفاه خارج الكوفة، وقيل مقتل الحسين أقبل المختار في جند مسلم لينصروه لكن الحسين قتل قبل أن يبلغوه، فقبض عليه ابن زياد وحبسة وتولى زعامة الشيعة بعد هلاك ابن صرد والتوابين.

... فإن رأيت أن تجمع الشُّرط والمقاتلة ووجوه الناس، ثم تنهض إليهم ، وننهض معك، فإذا دفعت إلى منزله دعوته فإن أجابك فحسبه، وإن قاتلك قاتله، وقد جمعت له وعبأت، وهو مغتر، فإني أخاف عليك إن هو بدأك وأقررته حتى يخرج عليك أن تشتد شوكته، وأن يتفاقم أمره، فقال عبدالله بن يزيد: الله بيننا وبينهم، إن هم قاتلونا قتلناهم وإن تركونا لم نطلبهم، حدثني ما يريد الناس؟ قال: يذكر الناس أنهم يطلبون بدم الحسين بن عليٍّ، قال : فأنا قتلت الحسين؟! لعن الله قاتل الحسين! قال : وكان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يثبوا بالكوفة، فخرج عبدالله بن يزيد حتى صعد المنبر، ثم قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد.. فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ما هو؟ فقيل لي : زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن عليٍّ، فرحم الله هؤلاء القوم، قد والله ذُللت على أماكنهم، وأمرت بأخذهم، وقيل: ابدأهم قبل أن يبدؤك، فأبيت ذلك، فقلت: إن قاتلوني قاتلتهم، وإن تركوني لم أطلبهم، وعلام يقاتلونني؟! فوالله ما أنا قتلت حسيناً ولا أنا ممن قاتله، ولقد أُصبت بمقتله – رحمة الله عليه – فإن هؤلاء القوم آمنون فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم، وأنا لهم على قاتله ظهير ...)[١] ،غير أن التوابين أنفسهم كانوا مترددين كثيراً في الهدف الذي له الأولوية والأهمية عندهم:

(٢) تاريخ الطبري حـــ٥ صـــ٥٦٢.

- فبعضهم كان يرى أنه من الأولى أن يتم التخلص من الأشراف الكوفيين الذين ساهموا كثيراً في هزيمة الحسين وتفريق الناس عنه .
- بينما كان هناك فريق آخر منهم يرى أن هدفهم هو الأمويون الذين قتلوا الحسين وأهل بيته، وظلوا كذلك حتى خطب فيهم سليمان بن صرد الذي تولى قيادتهم فحسم الأمر، وأنهى الخلاف وأعلن أن قتال الأمويين مقدم على قتال غيرهم ولابد من أخذ الثأر منهم.

وكان كلام سليمان بن صرد مسموعاً فيهم لأنه أكبر زعماء الحركة سناً ، وأسبقهم في الإسلام ، وأوثقهم علاقة بـــ" عليٍّ بن أبي طالب " وأهل بيته، وأرفعهم شأناً في مكانته القبلية، كما كان طرازاً فريداً بين رجالات الكوفة، لأنه كما حكى عنه الطبري :(كانت له صحبة مع النبي)[1] كما كان خطيباً مفوهاً، ومتحدثاً لسناً ، تبنى القضية ورفع شعارها، واعتبر السكوت عن قتلة الحسين خيانة له بعد قتله ينبغي ألا تلحقهم كما قصروا في حمايته حال حياته.

لقد كان مقتل الحسين حادثاً بشعاً أذكى نار التشيع إلى أقصى حد (وكان عاملاً على وحدة الشيعة وحماستهم لنصرة مذهبهم، وسبباً في ثوراتهم الجارفة ليثأروا من قتلة الحسين ... ولم يلبث عداء الشيعة للأمويين أن استعلن في عهد عبدالملك بن مروان فتحركوا بالكوفة سنة ٦٥هـــ، وتداولوا أمرهم بينهم، وأجمعوا على أنهم قد فرَّطوا في دم الحسين، وندموا على ما اقترفوا، وتابوا مما اجترحوا، فتسموا التوابين، وتزعمهم سليمان بن صرد الخزاعي، وهؤلاء التوابون اجتمعوا

(١) تاريخ الطبري جـــ٥ صـــ ٥٥٢.

بالنخيلة[١]، ثم انتقلوا منها إلى قبر الحسين فبكوا كثيراً، ونادوا : يا رب إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا فاغفر لنا ما مضى، وتب علنيا إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين، ثم ساروا حتى التقوا في عين الوردة[٢] بجيش عبدالملك بن مروان يقوده الحصين بن نمير السكوني، فدعاهم القائد قبل الاشتباك أن يبايعوا عبدالملك بالخلافة فرفضوا، وطلبوا منه أربعة مطالب :

– أن يدفع أهل الشام إليهم عبيد الله بن زياد ليقتلوه ثأراً للحسين، وأن يخلعوا عبدالملك، وأن يخرجوا من العراق آل الزبير، ثم يرد الحكم إلى أهل بيت النبي.

فأبى أهل الشام، وتقاتل الفريقان بضعة أيام أحر قتال، وقُتل سليمان بن صرد، وقُتل من خلفاه على القيادة وانهزم التوابون سنة ٦٥هـ) [٣]

(١) مكان (قرية صغيرة) شمالي الكوفة .

(٢) مدينة تقع غربي الكوفة وإلى الشمال الشرقي من دمشق في أرض الشام.

(٣) أدب السياسة في العصر الأموي – أحمد الحوفي صـ٤١ ط٥ ،وينظر تاريخ الطبري ، مروج الذهب ومعادن الجوهر .

الفصل الأول

خُطب ورسائل زعماء التوابين

لحركة التوابين – بوصفها أول حركة شيعية ظهرت بعد مقتل الحسين بن عليٍّ ولها في الحركات الشيعية تأثير عميق – أثر في الأدب العربي يحتاج إلى العناية والدرس بفضل ما لزعمائها ودعاتها ثم ما لأنصارهم من بعدهم من شعر ونثر له قيمة أدبية كبيرة.

اهتم بعض الباحثين بحصر الشعر – على قلته عندهم – واعتنى البعض الآخر بالإشادة ببعض خطبائهم دون دراسة لخطبهم ولا رسائلهم ، فآثرت جمع هذه الآثار من الخطب والرسائل لديهم ودراستها ، إسهاماً في إظهار ما لهذه النصوص من أثر أدبي يحتاج إلى العناية والدرس ، لا سيما أن لهذه الأثار الأدبية قيمة وثائقية كبيرة ؛ إذ تطلعنا على بداية أمر التوابين، ثم على طوره الأخير، وتعرفنا بحقيقة حركتهم، والتأريخ لها والحكم عليها، وكذلك لأن حركة التوابين قد التف حولها جمهور كثير من عامة أهل الكوفة والبصرة، ودعاهم خطباؤها إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ولقى هذا الخطاب الزهدي – بسبب مجموعة من الظروف والعوامل – قبولاً واستجابة وانتشارا.

وقد جمعت هذه النصوص من عدة مصادر أهمها :

- تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري ت٢١٠هـ وهو المعروف بـ" تاريخ الطبري " .
- الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين ت٦٣٠هـ.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر لعلي بن الحسين المسعودي ت ٣٤٦هـ.
- الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ت ٤٧٦هـ

وقد تبين بعد جمع خطب ورسائل زعماء تلك الحركة أن سليمان بن صُرَد الخزاعي انفرد بنصيب كبير من هذه النصوص (خطب – رسائل)، في حين جاءت خطب أخرى لغيره من زعماء الحركة بنصيب أقل من أمثال: المسيب بن نجبة – وعبدالله بن وال التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي ... إلخ.

كما تبين أن كتاب " تاريخ الأمم والملوك " قد حوى أغلب هذه النصوص بل انفرد ببعضها أحياناً، وجاءت بعض النصوص في مصادر أخرى مع بعض زيادات أو نقصان أو تغيير في الألفاظ أو العبارات.

وفيما يلي نص الخطب والرسائل:

المبحث الأول

أولاً: الخطب

ذكر الطبري قال : (... لما قتل الحسين بن عليٍّ ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة فدخل الكوفة؛ تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت أنها أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين إلى النصرة وتركهم إجابته، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه، ورأوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه، ففزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة، إلى سليمان بن صرد الخزاعي، وكانت له صحبة مع النبي– صلى الله عليه وسلم – وإلى المسيب بن نجبة الفزاري ،وكان من أصحاب عليٍّ وخيارهم ،وإلى عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وإلى عبدالله بن وال التميمي ،وإلى رفاعة بن شداد البجلي ، ثم إن هؤلاء النفر الخمسة اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد وكانوا من خيار أصحاب علي، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ...) [1]

(١) تاريخ الطبري جـ ٥ صـ٥٥٢ .

خطبة المُسَيِّب بن نَجَبة [١]

لما اجتمع النفر إلى منزل سليمان بن صرد بدأ المسيب بن نجبة القوم بالكلام، فتكلم فحمد الله وأثنى عليه ،وصلى على نبيه– صلى الله عليه وسلم – ثم قال :

أما بعد ..

فإنَّا قد ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غداً : (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)[٢] فإن أمير المؤمنين [عليا] قال : " العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة " وليس فينا رجل إلا وقد بلغه، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا وتقريظ شيعتنا، حتى بلا الله أخبارنا فوجدنا كاذبين في كل موطن من مواطن ابن بنت نبيه [نبينا] وقد بلغتنا قبل ذلك كُتبه، وقدمت علينا رُسله، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءاً، وعلانية وسراً ، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قُتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بأنفسنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا عند ربنا، وعند لقاء نبينا – صلى الله عليه وسلم – وقد قتل فينا ولد [ولده] حبيبه [وحبيبه]، وذريته ونسله، لا

---

(١) هو المسيب بن محمد بن نجبة الفزاري ، من وجوه أصحاب عليٍّ ، نزل الكوفة فيمن نزل بها من المسلمين ، وكان فيمن راسل الحسين بن علي لكنه حين مقدم الحسين فضل العزلة وطلب السلامة لنفسه ، فلما قتل كان أول من دعا أصحابه إلى الاجتماع لتدبر أمرهم ، فكان رأساً من رؤوس التوابين وقتل سنة ٦٥هـ .

عرف المسيب بأنه شاعر وخطيب ، وخطبته تلك " محل الدراسة" هي النص الوحيد الذي ذكرته المراجع له ، وهي خطبة ألقاها عند أول اجتماع للتوابين سنة ٦١هـ في منزل ابن صرد (ينظر في ترجمته تاريخ الطبري – الكامل لابن الاثير– مروج الذهب للمسعودي –شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي) .

(٢) سورة فاطر – آية ٣٧ .

والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تُقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن.

أيها القوم : ولوا عليكم رجلاً منكم، فإنه لابد لكم من أمير تفزعون إليه، وراية تُحفون بها، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم) [١]

خطبة رفَاعة بن شدَّاد البَجَلي [٢]

قال الطبري :

فبدر القوم رفاعة بن شداد بعد المسيب بالكلام، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي –صلى الله عليه وسلم – ثم قال :

أما بعد ..

فإن الله قد هداك لأصوب القول، ودعوت إلى أرشد الأمور، بدأت بحمد الله والثناء عليه،

والصلاة على نبيه – صلى الله عليه وسلم – ودعوت إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من

الذنب العظيم، فمسموع منك، مستجاب لك مقبول قولك.

قلت : ولوا أمركم رجلا منكم تفزعون إليه، وتحفون برايته. وذلك رأي قد رأينا مثل الذي رأيت، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضياً ،

(١) تاريخ الطبري جـ٥صـ٥٥٢، وينظر الكامل لابن الاثير ٤٨٦/٣، وأدب السياسة في العصر الأموي لأحمد الحوفي صـ٣٠٥ .

(٢) رفاعة بن شداد البجلي من خيار ووجوه أصحاب علي ، ومن أشهر دعاة التوابين، قال عنه الزركلى :(من أهل الكوفة ومن شيعة علي ، ومن القراء ، عرف بشجاعته ، قتل مع المختار الثقفي سنة ٦٦هـ– ينظر الأعلام جـ٢ صـ١٥٧ ط دار العلم للملايين – بيروت .

وفينا منتصحاً وفي جماعتنا محباً [محبوبا]، وإن رأيت رأى أصحابنا ذلك ولَّينا هذا الأمر شيخ الشيعة ؛ صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد الخزاعي ؛ المحمود في بأسه ودينه، والموثوق بحزمه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.) [١]

خطبة عبدالله بن وال وعبدالله بن سعد بن نفيل

قال الطبري (ثم تكلم عبدالله بن وال، وعبدالله بن سعد فحمداً ربهما وأثنيا عليه، وتكلما بنحو من كلام رفاعة بن شداد فذكرا المسيب بن نجبة بفضله، وذكرا سليمان بن صرد بسابقته، ورضاهما بتوليته، فقال المسيب بن نجبة : أصبتم ووفقتم، وأنا أرى مثل الذي رأيتم، فولوا أمركم سليمان بن صرد) [٢]

(١)تاريخ الطبري جـ٥صـ٥٥٣، الكامل ٤٨٧/٣

(٢) السابق جـ٥ صـ٥٥٣

خُطب سليمان بن صُرَد الخزاعي [1]

الأولى [2]

روى الطبري قال : (فتكلم سليمان بن صرد فشدد ... بدأ فقال :

أُثني على الله، وأحمد آلاءه وبلاءه، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسوله.

أما بعد ..

فإني والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجور أولى الفضل من هذه الشيعة لما هو خير، إنا كنا نمد أعناقنا إلي قدوم آل نبينا، ونمنيهم النصر، ونحثهم على القدوم، فلما قدموا ونينا وعجزنا، وادَّهنا وتربصنا، وانتظرنا ما يكون حتى قتل فينا ولد نبينا ، وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه، إذ جعل يستصرخ فلا يصرخ، ويسأل النَّصف فلا يعطاه، اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل، ودَرِيَّة للرماح حتى أقصدوه، وعَدَوا عليه فسلبوه .

---

(١) سليمان بن صرد بن الجون بن أبي الجون بن منقذ بن ربيعة ، يعود بالولاء إلى خزاعة ، له بالرسول –صلى الله عليه وسلم – صحبة، أسلم قبل فتح مكة وقد أشرف على الثلاثين من عمره ، نسبت له أحاديث رواها عن النبي – صلى الله عليه وسلم – نزل الكوفة مع من نزل من المسلمين ، وصحبته بعلي بن أبي طالب معروفة مشهورة ، شهد معه (الجمل ٣٦هـ – وصفين ٣٧هـ) عُرف عن ابن صرد أنه كان شديد التحرج في الدين ، وكثرة توقفه ، وكان ممن راسل الحسين بن علي للخروج إلى الكوفة ثم تخاذل عنه، ثم تزعم حركة التوابين فقاتل وقتل فيمن قتل منهم في موقعة عين الوردة سنة ٦٥هـ (ينظر الإصابة في معرفة الصحابة لشهاب الدين العسقلاني ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، والبداية والنهاية لابن كثير).

(٢) هي أولى الخطب لابن صرد وقد اختاره التوابون زعيماً لحركتهم عند أول اجتماعهم في منزله بعد مقتل الحسين، ودعاهم فيها إلى تدبر أمرهم ، والإعداد لحركتهم سبل نجاحها .

ألا انهضوا فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله، أو تبيروا[١] ، ألا لا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل، كونوا كالأولى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم :(إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ)[٢] فما فعل القوم ؟ جثوا على الركب والله، ومدوا الأعناق، ورضوا بالقضاء حتى حين، علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعي القوم إليه! اشحذوا[٣] حتى تدعوا حين تدعون وتستنفرون)[٤] .

قال : فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال : أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلي نفسي يخرجني من ذنبي ويرضي ربي لقتلتها، ولكن هذا أُمِر به قومٌ كانوا قبلنا ونهينا عنه، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوي صدقة على المسلمين، أقويهم به على قتال القاسطين[٥]

وقام أبو المعتمر حنش بن ربيعة الكناني فقال: وأنا أشهدكم على مثل ذلك .

فقال سليمان بن صرد: حسبكم

---

(١) تبيروا : تهلكوا .

(٢) سورة البقرة – آية ٥٤ .

(٣) في الكامل:(أحدوا السيوف وركبوا الأسنة، وأعدوا لهم ما استطعتم من القوة ومن رباط الخيل حتى تدعوا).

(٤) تاريخ الطبري ٥/ ٥٥٤، الكامل ٣/ ٤٨٧ .

(٥) القاسط: من جار في الحكم وبغى فيه .

من أراد من هذا شيئاً فليأت بماله عبد الله بن وال التميمي تيم بكر بن وائل، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجه من أموالكم جهزنا به ذوي الخلة والمسكنة من أشياعكم . قال أبو مخنف لوط بن يحيى عن سليمان بن أبي راشد قال فحدثنا حميد بن مسلم الأزدي أن سليمان بن صرد قال لخالد بن سعد بن نفيل حين قال له: والله لو علمت أن قتلي نفسي يخرجني من ذنبي ويرضي عني ربي ...قال: أخوكم هذا غداً فريس أول الأسنَّة، قال: فلما تصدق بماله على المسلمين قال له: أبشر بجزيل ثواب الله للذين لأنفسهم يمهدون)[1].

الثانيـــــة[2]

رويداً.. لا تعجلوا، إني قد نظرت فيما تذكرون، فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة، وفرسان العرب، وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون، وعلموا أنهم المطلوبون؛ كانوا أشد عليكم ..ونظرت فيمن تبعني منكم فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم، ولم يشفوا أنفسهم، ولم ينكوا في عدوهم، وكانوا لهم جزرا، لكن بثوا دعاتكم في المصر ، فادعوا إلى أمركم هذا شيعتكم وغير شيعتكم فإني أرجو أن يكون الناس اليوم حيث هلك هذا الطاغية أسرع إلى أمركم استجابة منهم قبل هلاكه.

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٥٥٥ .

(٢) هذا مقطع من خطبة له قالها لما هلك" يزيد بن معاوية" سنة ٦٤هـ، فلما مات يزيد جاء إلى سليمان أصحابه فقالوا: قد هلك هذا الطاغية، والأمر ضعيف فإن شئت وثبنا على عمرو بن حريث- وكان خليفة ابن زياد على الكوفة- ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين، وتتبعنا قتلته، ودعونا الناس إلى أهل هذا البيت المستأثر عليهم، المدفوعين عن حقهم (ينظر الكامل لابن الأثير ٣/ ٤٨٨- الطبري٥/ ٥٥٨

ففعلوا وخرجت طائفة منهم دعاة يدعون الناس فاستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد بن معاوية أضعاف من كان استجاب قبل ذلك[١] .

الثالثـــــة [٢]

قال: رأيي والله أنكم لم تكونوا قط أقرب من إحدى الحسنيين منكم يومكم هذا؛ الشهادة والفتح، ولا أرى أن تنصرفوا مما جمعكم الله عليه من الحق، وأردتم به من الفضل، إنا وهؤلاء مختلفون، إن هؤلاء لو ظهروا دعونا إلى الجهاد مع ابن الزبير[٣] ، ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضلالا، وإنا إن نحن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهله، وإن أُصبنا فعلى نياتنا، تائبين من ذنوبنا، إن لنا شكلاً، وإنَّ لابن الزبير شكلا، وإنا وإياهم كما قال أخو بني كنانة :

أرى لكِ شكلاً غير شكلي فأقصري

عن اللوم إذ بدّلت واختلف الشكل[٤]

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٥٥٨– الكامل ٣/ ٤٨٨

(٢) خرج التوابون لملاقاة جيش عبيد الله بن زياد في النخيلة وعين الوردة، فبعث إليهم عبد الله بن يزيد(ت٧٠هـ) أمير الكوفة من قبل ابن الزبير يدعوهم إلى الانضمام إليه، فلما قرئ الكتاب على ابن صرد وأصحابه قال للناس :(ما تريدون؟ قالوا : أخبرنا برأيك ، فكان من جوابه هذا المقطع (ينظر تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٢) .

(٣) عبد الله بن الزبير بن العوام ، دعا لنفسه بالخلافة بمكة، وبويع بالخلافة عقب موت يزيد بن معاوية، قتله الحجاج بن يوسف بمكة سنة ٧٣هـ .

(٤) تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٢ .

الرابعـــــــة [١]

أيها الناس : من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة ؛ فذلك منا ونحن منه، فرحمة الله عليه حياً وميتاً، ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأتي فيئاً نستفيئه، ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوان الله رب العالمين، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خز ولا حرير، وما هي إلا سيوفنا في عواتقنا، ورماحنا في أكفنا، وزادٌ قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا[٢] .

الخامســـــة[٣]

أما بعد.. أيها الناس

فإن الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطلبون، وإن للدنيا تجاراً وللآخرة تجارا. فأما تاجر الآخرة فساع إليها، متنصب بتطلابها، لا يشتري بها ثمنا، لا يُرى إلا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجدا، ولا يطلب ذهباً ولا فضة، ولا دنيا ولا لذة، وأما تاجر الدنيا فمكبٌّ عليها، راتع فيها ، لا يبتغى بها بدلاً .

---

(١) هذه الخطبة ألقاها سليمان بن صرد تذكيراً لأصحابه بغايتهم التي من أجلها خرجوا، وذلك أنهم أعطوه العهود والمواثيق ليجاهدن ولينصرن ، ثم تخلف عنه أكثرهم ،فأقام بالنخيلة ثلاثاً يبعث إليهم ،فقال المسيب بن نجبة: رحمك الله–إنه لا ينفعك الكاره، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية، فلا تنتظرن أحداً واكمش(أسرع) في أمرك، قال: فإنك والله لنعما رأيت، فقام فتوكأ على قوس له عربية، وقال هذه الخطبة القصيرة(ينظر تاريخ الطبري ٥/ ٥٨٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٥/ ٥٨٥ .

(٣) هذه الخطبة قالها سليمان بن صرد في أصحابه يشحذ عزائمهم لملاقاة عدوهم لما خرجوا إلى النخيلة، وتخلف منهم عدد كبير، فسأله بعض الناس وعرض عليه أن يقيم حتى يلقوا جموع أهل الشام، على أن يخصوه وأصحابه بخراج "جوخى" من دون الناس ، فقال سليمان: إنا ليس للدنيا خرجنا.(ينظر تاريخ الطبري٥/ ٥٨٨).

فعليكم – يرحمكم الله – في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله كثيراً على كل حال، وتقربوا إلى الله– جل ذكره– بكل خير قد رتم عليه؛ حتى تلقوا هذا العدو والمحل القاسط فتجاهدوه .

فإن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة، فإن الجهاد سنام العمل .

جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين، والمجاهدين الصابرين على اللأواء، وإنا مدلجون الليلة من منزلنا هذا – إن شاء الله – فأدلجوا[١] .

السادســـــة[٢]

أما بعد ..

فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح، ولقاء الله معذرين، فقد جاءوكم بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيزهم، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا يولينهم امرؤ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة .

لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم؛ إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، أو يكون من قتلة إخواننا بالطف[٣] رحمة الله عليهم، فإن هذه كانت سيرة أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة .

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٥٨٨

(٢) هذه الخطبة قالها ابن صرد وقد أشرفوا على لقاء عدوهم، يدعوهم فيها إلى الصبر على شدة الحرب، وفيها يحدد لهم ما عليهم اتباعه في سيرتهم (سيرهم) حين لقاء عدوهم .

(٣) الطف : أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية، فيها كان مقتل الحسين بن علي، وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون جارية ...(ينظر معجم البلدان –ياقوت ٤/ ٤٢٤)

ثم قال سليمان: إن أنا قتلت فأمير الناس المسيب بن نجبة، فإن أصيب المسيب أمير الناس عبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل عبد الله بن سعد فأمير الناس عبد الله بن وال ، فإن قتل عبد الله بن وال فأمير الناس رفاعة بن شداد، رحم الله امرأً صدق ما عاهد الله عليه[١].

خطبة عبيد الله المري[٢]

ذكر الطبري قال: قال هشام: قال أبو مخنف: وحدثنا الحصين بن يزيد عن رجل من مزينة قال: ما رأيت من هذه الأمة أحداً أبلغ من عبيد الله بن عبد الله المري في منطق ولا عظة، وكان من دعاة أهل المصر زمان سليمان بن صرد، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم بدأ بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم يقول :

أما بعد ..

فإن الله اصطفى محمداً –صلى الله عليه وسلم– على خلقه بنبوته، وخصه بالفضل كله، وأعزكم باتباعه، وأكرمكم بالإيمان به، فحقن به دماءكم المسفوكة، وأمَّن به سبلكم المخوفة، (وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[٣].

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٥٨٥ .

(٢) هو عبيد الله بن عبد الله المري من أشهر خطباء ودعاة وزعماء التوابين، ولم أقف له على ترجمة في المصادر ، سواء القديمة منها والحديثة، ولا يعرف سنة مولده ولا وفاته، وإن كان يرجح أنه توفي (قتل) سنة ٦٥هـ في موقعة عين الوردة أو بعدها بقليل.

وهذه الخطبة –كما ذكر الطبري– كان يرددها على مسامع التوابين حتى لا يتخاذلوا كما كانوا يتخاذلون –غالبا– في مثل هذه المواقف والوقائع .

(٣) سورة آل عمران –آية ١٠٣

فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها؟ لا والله ما كان ولا يكون .

لله أنتم ! ألم تروا ويبلغكم ما اجتُرم إلى ابن بنت نبيكم! أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته، واستضعافهم وحدته، وترميلهم إياه بالدم، وتجرارهموه على الأرض! لم يرقبوا فيه ربهم، ولا قرابته من رسول الله– صلى الله عليه وسلم– اتخذوه للنبل غرضاً، وغادروه للضباع جزراً، فلله عينا من رأى مثله! ولله حسين بن عليٍّ ماذا غادروا به ذا صدق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم! ابن أول المسلمين إسلاماً، وابن بنت رسول رب العالمين، قلَّت حُماته، وكثرت عُداته حوله، فقتله عدوه، وخذله وليه، فويل للقاتل، وملامة للخاذل.

إن الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معذرة، إلا أن يناصح لله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين، فعسي الله عند ذلك أن يقبل التوبة، ويقيل العثرة.

إنَّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المحلِّين المارقين، فإن قُتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا[١] .

قال :وكان يعيد هذا الكلام علينا في كل يوم حتى حفظه عامتنا.

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٥٦٠

دعاء التوابين على قبر الحسين[١]

روى الطبري قال:

(عن عبد الرحمن بن غزية قال: لما انتهينا إلى قبر الحسين – عليه السلام – بكى الناس بأجمعهم، وسمعت جل الناس يتمنون أنهم كانوا أصيبوا معه؛ فقال سليمان : اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهديِّ بن المهدي، الصدِّيق ابن الصدِّيق، اللهم إنَّا نشهدك أنَّا على دينهم وسبيلهم، وأعداء قاتليهم، وأولياء محبيهم..

يا رب إنِّا قد خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصدِّيقين، وإنَّا نشهدك يا رب أنا على مثل ما قتلوا عليه، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لكونن من الخاسرين)[٢]

(١) كان هذا الدعاء على قبر الحسين بكربلاء ، وقد مروا به ليجددوا عهدهم ويؤكدوا عزمهم على الخروج، فأقاموا عنده يوماً وليلة يصلون عليه، ويبكون ويتضرعون، فما رئي يوم كان أكثر باكياً منه، قال :فوالله لرأيتهم ازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحجر الأسود (ينظر تاريخ الطبري٥/ ٥٨٩– الكامل٤/ ٥)

(٢) ينظر تاريخ الطبري ٥/ ٥٨٩– الكامل ٤/ ٥ .

المبحث الثاني

ثانيـــاً :الرسائل

ذكر المسعودي تحت قوله : أهل الكوفة يدعون الحسين قال: (ولما مات معاوية أرسل أهل الكوفة إلى الحسين بن عليٍّ أنَّا قد حبسنا أنفسنا على بيعتك، ونحن نموت دونك، ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك)[١] .

كما ذكر اليعقوبي في تاريخه قال :(...فخرج الحسين إلى مكة، فأقام بها أياماً، وكتب أهل العراق إليه، ووجهوا الرسل على أثر الرسل ،فكان آخر كتاب ورد عليه منهم كتاب هانئ بن أبي هانئ، وسعيد بن عبد الله الخثعمي:

بسم الله الرحمن الرحيم

للحسين بن عليٍّ من شيعته المؤمنين والمسلمين، أما بعد..

فحي هلاً فإن الناس ينتظرونك، لا إمام لهم غيرك، فالعجل ثم العجل .. والسلام)[٢].

وذكر بن قتيبة في "الإمامة والسياسة" قوله: (وخرج الحسين بن علي إلى مكة، فمال الناس إليه، وكثروا عنده، واختلفوا إليه، وكان عبد الله بن الزبير فيمن يأتيه، قال: فأتاه كتاب أهل الكوفة فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

للحسين بن علي...)[٣] مع تغيير في بعض ألفاظ الرسالة .

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣/ ٦٧ ط دار الكتب العلمية –بيروت.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٦٩، وينظر تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٣، وكانت هذه الرسالة بعد الرسالة الأولى بيومين، والرسالة الثالثة بعدها مباشرة جاء فيها: (أما بعد.. فقد اخضر الجناب، وأينعت الثمار، وطمت الجمام، فإذا شئت فأقدم على جند لك مجند ، والسلام عليك).

(٣) الإمامة والسياسة صـــ ١٨٢ .

الرسالة الأولى [١]

لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين وابن عمر وابن الزبير عن البيعة؛ أرجفوا بيزيد[٢]، واجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد، فذكروا مسير الحسين إلى مكة، وأنه تقبَّض على القوم ببيعته، فقال سليمان : (أنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوهل[٣] والفشل فلا تغرو الرجل عن نفسه، قالوا: لا ، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه، قال : فاكتبوا إليه، فكتبوا إليه.

الرسالة : بسم الله الرحمن الرحيم

لحسين بن عليٍّ

من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر[٤] وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة، سلام عليك؛ فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد..

فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد[٥] الذي انتزى[٦] على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها

---

(١) هذه كانت أولى رسائلهم، يدعون فيها الحسين للخروج إليهم .

(٢) الإرجاف: الخَبَرُ الكاذِبُ المثير للفتن والاضطراب ،أرجف القومُ بكذا / أرجف القومُ في كذا : خاضوا في الأخبار السيئة وذكْر الفتن بقصد إيقاع الناس في الاضطراب .

(٣) الوهل: الضعف والجبن والفزع .

(٤) حبيب بن مظاهر أو ابن مظهر تابعي صحب عليًّا في حروبه ، وخرج للقاء الحسين في كربلاء، وقتل مع من قتل معه سنة ٦١هـ (ينظر الأعلام ١/ ٢٧٣) .

(٥) يقصدون معاوية .

(٦) انتزى : وثب وقفز .

وأغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود، إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق .

والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام – إن شاء الله–..

والسلام ورحمة الله عليك[١])

وسيروا الكتاب مع عبد الله بن سبع الهمداني، وعبد الله بن وال، ثم بعد ليلتين سيروا آخر، فكتب الناس نحواً من مائة وخمسين صحيفة، ثم أرسلوا إليه رسولاً يحثونه إلى المسير إليهم .

الرسالة الثانيـــــــة[٢]

قال الطبري: (.. حدثني الحصين بن يزيد بن عبد الله بن سعد بن نفيل قال: أخذت كتاباً كان سليمان بن صرد كتب به إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن، فقرأته زمان ولى سليمان، قال: فلما قرأته أعجبني، فتعلمته فما نسيته، كتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من سليمان بن صرد إلى حذيفة بن اليمان ومن قِبله من المؤمنين

سلام عليكم .. أما بعد ..

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٢ ، الكامل ٣/ ٣٨٥ .

(٢) هذه الرسالة بعث بها سليمان بن صرد إلى أنصاره وأحلافه في المدائن استعدادا للقاء عدوهم " الذي قتل الحسين "، وكان ذلك بعدما اتفقوا على قتال من قتل الحسين، أو يقتلوا فيه، وأمَّروا عليهم ابن صرد .

فإن الدنيا دار قد أدبر منها ما كان معروفاً، وأقبل منها ما كان منكراً، وأصبحت قد تشنَّأت إلى ذوي الألباب، وأزمع بالترحال منها عباد الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بجزيل مثوبة عند الله لا تفنى .

إن أولياء من إخوانكم، وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دُعي فأجاب، ودعا فلم يجب، وأراد الرجعة فحبس، وسأل الأمان فمنع، وترك الناس فلم يتركوه، وعدوا عيه فقتلوه ثم سلبوه وجردوه ظلماً وعدواناً وغِرة بالله وجهلا، وبعين الله ما يعملون، وإلى الله ما يرجعون (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ)[1]، فلما نظروا إخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أن قد خطئوا بخذلان الزكي الطيب وإسلامه وترك مواساته والنصر له خطأً كبيراً، ليس لهم منه مخرج ولا توبة، دون قتل قاتليه أو قتلهم حتى تفنى على ذلك أرواحهم؛ فقد جد إخوانكم فجدوا، وأعدوا واستعدوا، وقد ضربنا لإخواننا أجلاً يوافوننا إليه، وموطناً يلقوننا فيه، فأما الأجل فغرة شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، وأما الموطن الذي يلقوننا فيه فالنخيلة .

أنتم الذين لم تزالوا لنا شيعة وإخواناً، وإلا وقد رأينا أن ندعوكم إلى هذا الأمر الذي أراد الله به إخوانكم فيما تزعمون، ويظهرون لنا أنهم يتوبون، وإنكم جدراء بتطلاب الفضل ، والتماس الأجر، والتوبة إلى ربكم من الذنب، ولو كان في ذلك حزُّ الرقاب، وقتل الأولاد، واستيفاء الأموال، وهلاك العشائر ، ما ضر أهل عذراء الذين قتلوا ألا يكونوا اليوم أحياء عند ربهم يرزقون، شهداء قد لقوا الله صابرين محتسبين،

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٧ .

فأثابهم ثواب الصابرين _يعني حجراً وأصحابه_ وما ضر إخوانكم المقتلين صبراً، المصلبين ظلماً، والممثل بهم المعتدى عليهم، ألا يكونوا أحياء مبتلين بخطاياكم، قد خير لهم فلقوا ربهم، ووفاهم الله –إن شاء الله_ أجرهم، فاصبروا –رحمكم الله– على البأساء والضراء وحين البأس، وتوبوا إلى الله عن قريب، فوالله إنكم لأحرياء ألا يكون أحد من إخوانكم صبر على شيء من البلاء إرادة ثوابه إلا صبرتم التماس الأجر فيه على مثله، ولا يطلب رضاء الله طالب بشيء من الأشياء ولو أنه القتل إلا طلبتم رضا الله به .

إن التقوى أفضل الزاد في الدنيا، وما سوى ذلك يبور ويفنى، فلتعزف عنها أنفسكم، ولتكن رغبتكم في دار عافيتكم،؛ وجهاد عدو الله وعدوكم، وعدو أهل بيت نبيكم حتى تقدموا على الله تائبين راغبين، أحيانا الله وإياكم حياة طيبة، وأجارنا وإياكم من النار، وجعل منايانا قتلاً في سبيله على يدي أبغض خلقه إليه وأشدهم عداوة له؛ إنه لقدير على ما يشاء، والصانع لأوليائه في الأشياء.. والسلام عليكم[١])

وكتب سليمان بن صرد إلى المثنى بن مخربة العبدي نسخة الكتاب الذي كان كتب به إلى سعد بن حذيفة بن اليمان[٢] .

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٥٥٥ .

(٢) السابق ٥/ ٥٥٦ .

الرسالة الثالثـــــــة[١]

من سليمان بن صرد إلى الأمير عبد الله بن يزيد[٢] ، وكان عبد الله بن يزيد أرسل إلى سليمان وأصحابه، وهذا رده عليه .

قال الطبري: (...فكتب سليمان

بسم الله الرحمن الرحيم

للأمير عبد الله بن يزيد ، من سليمان بن صرد ومن معه من المؤمنين، سلام عليك

أما بعد ..

فقد قرأنا كتابك، وفهمنا ما نويت، فنعم والله الوالي، ونعم الأمير، ونعم أخو العشيرة، أنت والله من نأمنه بالغيب، ونستنصحه في المشورة، ونحمده على كل حال؛ إنا سمعنا الله – عز وجل – يقول في كتابه:(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...)[٣]الآية .

إن القوم قد استبشروا ببيعتهم التي بايعوا، إنهم قد تابوا من عظيم جرمهم، وقد توجهوا إلى الله وتوكلوا عليه، ورضوا بما قضى الله،

---

(١) هذه الرسالة رد من سليمان بن صرد على رسالة أمير الكوفة من قِبَل عبد الله بن الزبير، وكان أرسل إلى سليمان وأتباعه بعدما قربوا من ديار عدوهم يستمهلهم حتى لا يقتلوا ، ويطلب منهم أن يقبلوا عليه حتى يكون معهم بعدته وعتاده ، فلما قرئ الكتاب على ابن صرد وأصحابه قال للناس : ما ترون؟ قالوا: ماذا ترى؟ قد أبينا ... ودنونا من أرض عدونا ، ما هذا برأي ، قال: رأي والله أنكم ...) الخطبة الثالثة ، وقد رأينا موقف ابن صرد وأصحابه في تلك الخطبة .

(٢) هو عبد الله بن يزيد الأنصاري، ولاه ابن الزبير الكوفة من قبله، فلما علم بخروج التوابين؛ عرض على ابن صرد وأصحابه ألا يخرجوا وأن ينضموا إليه ، فأبوا ذلك، توفي سنة ٧٠هـ (ينظر الأعلام ٥/ ١١٣) .

(٣) سورة التوبة آية ١١١ .

(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)[١] ..

والسلام عليك)[٢] .

قال الطبري: (فلما أتاه هذا الكتاب قال: استمات القوم، أول خبر يأتيكم عنهم قتلهم، وايم الله ليقتلن كراماً مسلمين، ولا والذي هو ربهم لا يقتلهم عدوهم حتى تشتد شوكتهم، وتكثر القتلى فيما بينهم)[٣] .

(١) سورة الممتحنة آية ٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٢ .

(٣) السابق ٥/ ٥٩٣ .

الفصل الثاني

الدراسة الفنية لخطب ورسائل زعماء جماعة التوابين

في ذلك العصر" الأموي"؛ لا تكاد الخطابة ولا الرسائل في حزب تختلف عنهما في حزب آخر إلا في النذر اليسير جراء الدافع من وراء الخطبة أو الرسالة .

وكان من الطبيعي أن تنهض الخطابة في ذلك العصر لما وجدته من أرض خصبة، ومن وقود أذكى جذوتها ، تمثل في الأحزاب السياسية وقيام دعاية كل حزب عليها، كذلك في الحرية التي كفلتها الخلافة حينئذ في الرأي والقول، وكذلك ما كان في ذلك العصر من وقائع وثورات ومعارك اتخذت – جميعها – من الخطابة سلاحاً، وقبل هذا كله ما كان للخطباء من فصاحة متوارثة وبديهة مسعفة، فهم – ما زالوا عرباً حريصين على لغتهم وأدبهم .

أما الرسائل فلم تنبت كتابتها على غرة في ذلك العصر، ولم يكن ظهورها فجأة، وإنما أخذت طريقها نحو التطور والتجويد موسومة بغلبة الإيجاز والترسل في أكثر حالاتها، وإن كان في بعضها ما ينزع إلى الطول على تفاوت في ذلك مع اقتباس من القران الكريم، وتأثر بالشعر في جمل متوازنة، وربما سجع غير مستكره، يجول أحياناً في بعض صور الخيال .

ولكي تزداد الدراسة وضوحاً:

(أ) تنم خطب كثيرة – من خطب ذلك العصر – عن العناية بإعدادها، والتأني في صوغها، والتدبير والاهتمام في ترتيب أجزائها، وفيها من الأفكار المنسقة ؛ والأسلوب الأنيق ما يؤكد ذلك .

وما زال الإعداد طابع كثير من الخطب في العصر ، وإن آثار الإعداد لواضحة ظاهرة تشي بها كثير من خطب التوابين ، لأن هذه الخطب جاءت :

- موحدة الموضوع
- مرتبة الأفكار
- جيدة الأسلوب
- متوازنة الجمل
- معتمدة على أنواع من الخيال
- بها نوع من السجع المقصود – أحيانا – لكنه غير متكلف، ولا مستكره
- بعضها يشتمل على مقدمة تمهد للموضوع، ثم ينتقل منها الخطيب إلى الموضوع ذاته .
- ثم إن الخطيب قد يمزج في عرض الموضوع تدليله على رأيه، وتفنيده لدعوى خصمه ، في نوع من المحاجة ينقض الدعوى ويفوت على الخصم غرضه .
- وربما ختم المتكلم الخطبة أو الرسالة بعبارات يلخص بها موضوعه، أو يستميل بها السامعين ويستثيرهم .

نجد ذلك إجمالاً في خطبة المسيب بن نجبة حين قال :(... وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه، وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا يسألنا نصره، عوداً وبدءاً، وعلانية وسراً، فبخلنا عنه بأنفسنا؛ حتى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألسنتنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا عند ربنا، وعند لقاء نبينا ...) فقد

جاءت الجمل متوازنة، مسجوعة ،بها بعض الخيال ،والخطبة موحدة الموضوع مرتبة الأفكار

كذلك نجده في قول سليمان بن صرد حين قال:(...فلما قدموا ونينا وعجزنا، وادهنا وتربصنا، وانتظرنا حتى قتل فينا ولد نبينا، وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه ...)[١]

كذلك ظهر أثر الإعداد والسجع، واتزان الجمل، ووحدة الموضوع في رسالته إلى الحسين بن عليٍّ حين كتب له:(... الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها ...)[٢]

(**ب**) أما افتتاح الخطبة أو الرسالة واستهلالهما ؛ فقد كان صورة من صور افتتاحهما في عصر صدر الإسلام في الأغلب الأعم .

(١) فالكثير الغالب مبدوء بحمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله.

(٢) وبعضها ربما يبدأ بالموضوع مباشرة .

(٣) والبعض قد يبدأ بالتقريع ولوم النفس .

لكن السمة الغالبة كانت في الاستفتاح بالحمد والثناء على الله، والصلاة والسلام على رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) الخطبة الأولى .

(٢) رسالته الأولى إلى الحسين ، والحديث فيها عن موت معاوية .

- من أمثلة ذلك ما رواه الطبري من خطبة سليمان بن صرد قال: (... بدأ فقال : أثني على الله، وأحمد آلاءه وبلاءه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسوله...)[١] .
- ومنه قول المسيب بن نجبة لما اجتمع النفر إلى منزل سليمان بن صرد، بدأ المسيب القوم بالكلام، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه –صلى الله عليه وسلم–.
- يظهر ذلك أيضا في خطبة رفاعة بن شداد حين بدر القوم بالكلام بعد المسيب (فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي – صلى الله عليه وسلم–...)[٢] .
- وفي خطبة عبيد الله المري يتجلى ذلك، كما ذكر الطبري عنه: (كان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ؛ بدأ بحمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسول الله– صلى الله عليه وسلم– .
- وكما جاء ذلك في الخطب جاء في الرسائل لكنه قليل إذا قورن بالخطب، ويكون الحمد والثناء على الله –حينئذ– أن استجاب لدعائهم أو انتقم من عدوهم.
- من ذلك ما قاله سليمان بن صرد في رسالته إلى الحسين بن عليٍّ قال: سلام عليك فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد .. فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد، الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها ...)[٣].

---

(١) الخطبة الأولى، تاريخ الطبري ٥/ ٥٥٤.

(٢) خطبة رفاعة بن شداد البجلي .

(٣) الكامل ٣/ ٣٨٥– الطبري ٥/ ٣٥٢ .

ومن الخطب التي بدأها قائلها بالحديث عن موضوعها مباشرة قول سليمان بن صرد في خطبته الثانية، والثالثة، والرابعة: (رويداً، لا تعجلوا، إني قد نظرت فيما تذكرون...)

(رأيي والله أنكم لم تكونوا قط أقرب من إحدى الحسنيين منكم يومكم هذا ...)

(أيها الناس من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة، فذلك من ونحن منه ...)

وذلك لأنه – ربما – قالها جميعاً في مجلس واحد، أو كانت رداً منه على رأي رأوه فجاءت الخطب كأنها متصلة لم يفصل بينها إلا بعض رأي قومه، وبعض شيعته .

- **أما عن أجزاء الخطبة أو الرسالة :**

فبعضها (الخطب والرسائل) مبنية كلها على عرض الموضوع، وبعضها مقسمة إلى مقدمة وعرض وخاتمة .

- فمما بني على عرض الموضوع من الخطب؛ خطبة رفاعة بن شداد البجلي، وخطبة عبد الله بن وال، وعبد الله بن سعد بن نفيل في ذكرهم سليمان بن صرد بسابقته وصحبته النبي؛ ورضاهم بتوليته أمرهم، والانضمام إليه، والانضواء تحت لوائه .
- وكذلك خطبة سليمان بن صرد الثانية، والثالثة، والرابعة، إذ جاءت خطبته الثانية تطالب شيعته بالتأني في الخروج إلى قتلة الحسين لقلة العدد، ومحاولة استكثارهم ببث الدعاة في الأمصار، لاسيما بعد موت يزيد بن معاوية .
- وجاءت الثالثة مطالبة إياهم بالخروج إلى قتلة الحسين للثأر منهم، ولإدراك إحدى الحسنيين– على حد قول ابن صرد– وأنهم إن

ظهروا ؛ ردوا الأمر إلى أهله، وإن أصيبوا فعلى نياتهم تائبين من ذنوبهم عن تقصيرهم في حق نصرة الحسين .

- أما الرابعة فجاءت لتبين أنهم إنما خرجوا ابتغاء وجه الله، وابتغاء ثواب الآخرة، لا لفيء ولا غنيمة، وليس معهم – ما يميل بعض النفوس التي تطلب الدنيا – من ذهب ولا فضة إلا زاد قدر البلغة، ويطلب ابن صرد ممن ينوي غير ذلك ألا يصحبهم، ولا يخرج معهم .
- ومن الرسائل رسالة سليمان بن صرد إلى الأمير عبد الله بن يزيد يرد عليه ، وقد استمهلهم الأمير حتى لا يقتلوا، وأن يقبلوا عليه ليكون معهم بعدته وعتاده.
- أما الخطب التي جاءت مقسمة إلى مقدمة وعرض وخاتمة فكثيرة؛ فالمقدمة واضحة في :

(أ) خطبة المسيب بن نجبة في قوله: (... فإنا قد ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن... وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا وتقريظ شيعتنا ...) وهي مقدمة تشي بلوم السامعين على حب الدنيا ، وعدم التضحية مع الحسين، مع أنهم كانوا يدَّعون عكس ذلك ؛ ليدلف من هذه المقدمة إلى الغرض من الخطبة وهو أنهم لا عذر لهم عند ربهم، وعند لقاء نبيهم من تقصيرهم في حق نصرة الحسين، وقد بلغتهم كتبه، وقدمت عليهم رسله (إقامة للحجة على المستمعين) ثم لابد لهم أن يقتلوا قاتلي الحسين والموالين عليه، أو يُقتلوا هم في طلب ذلك .

(ب) خطبة سليمان بن صرد الأولى في قوله: (فإني والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة، وعظمت فيه الرزية ... إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونمنيهم

النصر، ونحثهم على القدوم، فلما قدموا ونينا وعجزنا ، وادَّهنا وتربصنا ...) ليصل من هذه المقدمة إلى غرض الخطبة وهو حث شيعته على الثأر للحسين إذ قال:(ألا انهضوا فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله...)وهو في الغالب الغرض نفسه، والمعاني نفسها التي دعا إليها المسيب في خطبته السابقة.

(ت) وكذلك في خطبتيه الخامسة والسادسة ، إذ قدَّم لغرضه في خطبته الخامسة بقوله:(فإن الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطلبون، وإن للدنيا تجاراً وللآخرة تجارا، فأما تاجر الآخرة ...) حتى إذا جاء إلى غرض الخطبة وهو الوصية لشيعته قال:(فعليكم– يرحمكم الله – في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله على كل حال ...).

أما في السادسة فقال:(فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار، تريدون – فيما تظهرون – التوبة النصوح، ولقاء الله معذرين) مقدما لغرضه وهو الوصية – أيضا – إذ يقول:(لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلا ...).

(ث) وفي خطبة عبد الله المري نجد ذلك؛ إذ قدَّم خطبته بإظهار فضل النبي–صلى الله عليه وسلم – على جميع خلق الله، وعظيم حق ذريته على هذه الأمة، وما اجترم في حق الحسين ... إلخ.

وهي مقدمة طويلة منها :(فإن الله اصطفى محمداً على خلقه بنبوته، وخصه بالفضل كله ... فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ... لله أنتم ألم تروا ويبلغكم ما اجترم إلى ابن بنت نبيكم ... إن الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معذرة ...) ليصل إلى الغرض ؛ وقد أوجزه في

قوله:(إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المحلين والمارقين فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا ...).

(ج) من الرسائل رسالة سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان – وهي رسالة طويلة – يدعو فيها أحلافه في المدائن ، وأنصاره في الأمصار للاستعداد للقاء عدوهم (الذي قتل الحسين) جاء في مقدمتها:(فإن الدنيا دار قد أدبر منها ما كان معروفا، وأقبل منها ما كان منكرا، وأصبحت وقد تشنأت إلى ذوي الألباب ... إن أولياء من إخوانكم، وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دعي فأجاب...) ثم خرج من هذه المقدمة إلى الغرض من الرسالة وهو دعوة الأنصار والأحلاف للجد والاستعداد للقاء العدو فقال:(... فقد جد إخوانكم فجدوا، وأعدوا واستعدوا، وقد ضربنا لإخواننا أجلاً يوافوننا إليه ، وموطناً يلقوننا فيه ...).

- أما الخاتمة
- فتكون غالبا بعبارة ملخصة لموضوع الخطبة–كما سبق–أو الدعاء لنفسه وللسامعين بالصلاح، والصبر على اللأواء، كما في قول سليمان بن صرد:(جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين، المجاهدين الصابرين على اللأواء ...)[١].
- أو تكون باستغفار الخطيب لنفسه وللسامعين، كما في خاتمة خطبة المسيب بن نجبة:(أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم) ،وكذلك خاتمة خطبة رفاعة بن شداد البجلي .
- وربما ختمت الخطبة بآية من القرآن الكريم، أو بالاقتباس منه كما في آخر دعاء التوابين:(... وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

(١) الخطبة الخامسة .

الْخَاسِرِينَ)[1]، وكذا في ختام رسالة سليمان إلى الأمير عبد الله بن يزيد :(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)[2] .

- وربما ختمت الخطبة أو الرسالة ببيت من الشعر كما في الخطبة الثالثة لسليمان بن صرد إذ قال :(إنا وإياهم كما قال أخو بني كنانة :

أرى لكِ شكلاً غير شكلي فأقصري عن اللوم إذ بدلت واختلف الشكل

- وربما ختمت الخطبة أو الرسالة بغير هذا كله .

الخطب والرسائل " الأسلوب والعبارة "

لما كانت السياسة مشغلة العصر – حينئذ – وكانت الخطابة من أعظم عدد من يشتغل بالسياسة – وأظنها كذلك إلى يوم الناس هذا – ارتفع شأن الخطباء، وتقدموا الصفوف، وتصدروا المجالس، لا سيما وأن العرب في ذلك العصر لا يزالون ذوي حظ عظيم من المقدرة البيانية، والبديهة المسعفة، واللسن الفصيح، والفصاحة المتوارثة، هذا كله بالإضافة إلى أن جماعة التوابين كانوا ينطلقون في خطبهم عن عقيدة قوية، وينطلقون في منطقهم عن يقين راسخ بأنهم إنما قصروا في حق ذرية نبيهم؛ حتى قتلوا أمام أعينهم بعد دعوتهم إياهم، وأنهم لابد أن يردوا هذا الأمر إلى نصابه– تكفيراً لهم عما ارتكبوه من ذنب– وأن الله لن يرضى عنهم إلا إذا فعلوا ذلك – ولا أراه راضياً – كما قال أحدهم .

ولما كانت الثورة والاستعداد للقتال مشعلة للخطابة، مذكية لجذوتها؛ اتخذ التوابون منها – وإلى جانبها الرسائل – سلاحاً يتقوون به في إثارة حمية تابعيهم، وإلهاب عواطفهم وتحميسهم وتحريضهم على من قتل من دعوه للمناصرة " الحسين" لذا جاءت خطبهم:

(١) سورة الأعراف آية ٢٣ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٤ .

١. قوية العبارة تتسم بالصرامة والجزالة والحرارة، لأنها تعبر عن نفوس ثائرة حانقة، وعن مشاعر ملتهبة مهتاجة، كقول سليمان بن صرد:(ألا انهضوا، فقد سخط ربكم ...)، وقول عبيد الله المري:(أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته ،واستضعاف وحدته ... اتخذوه للنبل غرضاً، وغادروه للضباع جزرا ...) .

٢. قصيرة الجمل ليشتد وقعها، ويتلاحق تأثيرها، لتعكس ضيق النفس لدى الخطباء، وتشي بضجرهم وعدم رضاهم بما هو كائن، أو ما كان من قصور حيال نصرة سبط النبي – صلى الله عليه وسلم – .

كما في قول عبيد الله المري:(... قلت حماته، وكثرت عداته حوله، فقتله عدوه، وخذله وليه، فويل للقاتل ،وملامة للخاذل ...) ، وقول سليمان بن صرد :(... إذ جعل يستصرخ فلا يصرخ، ويسأل النصف فلا يعطاه، اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل، ودرية للرماح حتى أقصدوه، وعدوا عليه فسلبوه ...) .

٣. معتدلة – متوسطة – بين الطول والقصر، أو ما يسمى الإيجاز المعتدل ، كما هو الحال في أغلب خطب العصر الأموي في ذلك الوقت، ومنها بعض الخطب التي يغلب عليها التوسط القريب إلى الطول .

- فمن الإيجاز المعتدل خطبة عبدالله بن وال، وعبدالله بن سعد ابن نفيل ،ومن القريبة إلى الطول خطبة المسيب بن نجبة ،ورفاعة ابن شداد البجلي، وبعض خطب سليمان بن صرد .
- ويقل فيها الخطب المطولة كخطبة ابن صرد الأولى .

٤. العناية بالوقع والرنين من خلال تقسيم العبارة إلى جمل متوازنة متساوية الطول ، أو مسجوعة أو مزدوجة ... إلخ وقد سبق ذكر نماذج على ذلك .

٥. التأثر بالقرآن الكريم اقتباساً واستمداداً للمعاني ،كقول ابن صرد: (كونوا كالألى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم " إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم" فما فعل القوم ! جثوا على الركب والله ...).

- وقول المسيب بن نجبة:(فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غدا:(أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ...)
- وقول عبيد الله المري:(فحقن به دماءكم المسفوكة، وأمن به سبلكم المخوفة " وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ...)

وكان التوابون – كأغلب الخطباء الأمويين – ماهرين في وضع الآيات في المواضع الملائمة لها من الخطبة، حتى ليشكل على غير الحافظ للقرآن أن الكلام كله للخطيب، كما سبق ذكره .

ومن ذلك أيضا قول ابن صرد في خطبته السادسة:(واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا يولينهم امرؤ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة) ،وقوله:(رحم الله امرأ صدق ما عاهد الله عليه) ،وقوله:(أبشر بجزيل ثواب الله للذين هم لأنفسهم يمهدون) .

وإنما يعمد الخطباء إلى الاقتباس واستمداد المعاني القرآنية ؛ لأنهم متذوقون للبلاغة، قريبو عهد بأسلوب صدر الإسلام فصاحة ولسن، يعرفون أن فيما يوردونه من آيات تعبيراً صادقاً عما يريدون قوله، كما أن جريان المعاني القرآنية على اللسان يفخم القول ويجذب نفوس السامعين حتى ليقول الجاحظ :(وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن ،فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة، وسلس الموقع)[١]

(١) البيان والتبيين– الجاحظ ٢/ ٤٧ ط دار الكتب العلمية – بيروت .

على أن الاقتباس من القرآن الكريم كان الطابع الغلاب في الخطب الدينية والوعظية، ولهذا سموا خطبة الوعظ أو الدين إذا خلت من القرآن الكريم شوهاء، أما الخطب السياسية فقد غلب عليها الاستشهاد بالشعر(١).

والأمثلة على الاقتباس كثيرة – كما سبق – منه ما جاءت فيه الجملة قرآنية كلها ، ومنها ما كانت الجملة فيه صدرها من قول الخطيب مزيلة بعجز هو بعض آية من القرآن الكريم، والأمر كذلك في رسائلهم .

٦. الاستشهاد بالشعر، أو الاقتباس من معانيه وعباراته، ولا غرو ،فقد كان الشعر من ثقافتهم الأصيلة ،وكان تأثيره في نفوس الناس بعيد المدى يضربون به المثل ويقيمون به الحجة، ثم إن الشعر والخطابة معاً يتشابهان في استمالة المستمع وتأييد دعوى المتكلم ، لذا ختم سليمان بن صرد خطبته الثالثة بقوله :(إن لنا شكلاً، وإن لابن الزبير شكلاً، وإنا وإياهم كم قال أخو بني كنانة :

أرى لك شكلاً غير شكلي فأقصري عن اللوم إذ بدلت واختلف الشكل

وقد ظهر أثر ذلك في رسائلهم أيضا، حيث جاءت رسائلهم كخطبهم ؛ مرسلة ،

قصيرة الفقرات، خالية من الخيال – في الغالب_ ،وبها اقتباس من القرآن الكريم ، وختامها السلام ورحمة الله على المرسل إليه .

٧. اتسامها بالعنف والتهديد والوعيد

بوصفها لون من الخطابة السياسية في العصر الأموي؛ جاءت أغلب خطب زعماء التوابين ممزوجة بشن الحملات على الخصوم، والتهجم عليهم، بل وسبهم واتهامهم – ربما – بالضلال والكفر وأخذ ما ليس لهم

(١) أدب السياسة – الحوفي ٣٣٦ .

بحق، وتوعدهم بعقاب الله، وتهديدهم بالانتقام المردي منهم، وبالثورة عليهم، وعدم الاستجابة لهم فيما يأمرون به .

- كما في قول المسيب بن نجبة في قاتلي الحسين :(لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تقتلوا في طلب ذلك ...)
- وقول سليمان بن صرد:(ألا انهضوا فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا ...) فانظر كيف أثار القوم ، وحث شيعته على قتال الأعداء لأنهم فعلوا ما استوجب سخط الله فاستحقوا بذلك القتال والتهديد بالإهلاك .

(وقد كان الشائع أن هذه الظاهرة مقصورة على خطباء الحزب الأموي، إذ إنهم اعتمدوا على قوارص الكلم في إرهاب الثائرين، وزجر من تسول له نفسه أن يحدث فتنة، أو أن يخرج على الحكام، لكن الواقع أن في خطب الأحزاب الأخرى سباً وتهديدا)[1]، أو لا أقل من إظهار العداوة وقلب ظهر المجن ، وعدم النزول على الأمر الواقع ؛ حتى صاروا إلباً على من أعدوا لهم العدة للقتال .

(١) أدب السياسة في العصر الأموي- أحمد شلبي صـــ٣٢٧ .

خاتمـــــــة

الحمد لله الذي بنعمته يتم كل خير ، والصلاة والسلام على نبينا الخاتم – وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد..

فقد كان التوابون نادمين موتورين ؛ فجاءت خطبهم مختلفة النبرات باختلاف الأحداث وظروف الحرب، وقد عكست خطبهم ورسائلهم شدة إيمانهم بما يعتقدون، كما كانت خطبهم ورسائلهم ممتزجة بالدين، واتخذوا من القرآن وبيانه صوراً يوشحون بها كلامهم لتزداد تأثيراً وقوة وتشجيعاً في نفوس أتباعهم، وعلى أية حال فقد جاءت خطبهم ورسائلهم :

- معتنية بالاستهلال والختام والتقسيم مع تسلسل وارتباط في الأفكار .
- مراعية للتأنق والدقة وحلاوة الجرس، مع قوة العبارة وجزالتها وقصر الجمل .
- مهتمة ببعض الزخرف اللفظي والحلية البديعية، والعناية بالوقع والرنين .
- قوية التأثير قادرة على الإقناع، والإيهام بصدق القول .
- متوسطة قريبة من الطول؛ بسبب ما داخلها من التنميق والصنعة والإعداد، وإن اختلفت نظرة النقاد في طول الخطبة وقصرها ،فبعضهم يرى أن الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة، وذوي الأفهام الثاقبة، الذين يجتزئون بيسير القول من كثيره وبمجمله عن تفسيره ... وأما الإطالة ففي مخاطبة العوام، ومن ليس من ذوي الأفهام ،في حين أعجب البعض الآخر بالخطب القصار وجعل قصرها شرط جودتها

ومهام يكن فقد نشطت الخطابة في ذلك العصر، وارتقت رقياً كبيراً، إذ اتخذها أصحابها وسيلة للظفر في آرائهم السياسية، والانتصار في مجادلاتهم المذهبية وعولوا عليها في تكثير أتباعهم، وتجييش أجنادهم وتحريك الناس للثورة على مخالفيهم، ومن هذا المنطلق جاءت خطب التوابين .

هذا والله من وراء القصد والحمد لله أولاً وأخيرا

المـــــــراجع

١- أدب السياسة في العصر الأموي / أحمد محمد الحوفي ط٥ دار النهضة مصر.
٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر .
٣- الإصابة في معرفة الصحابة لشهاب الدين العسقلاني .
٤- الأعلام – خير الدين الزركلي ،ط دار العلم للملايين .
٥- الإمامة والسياسة لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ط دار الكتب العلمية – بيروت.
٦- البداية والنهاية لابن كثير .
٧- البيان والتبيين- الجاحظ ط دار الكتب العلمية – بيروت
٨- تاريخ الإسلام –الياس محسن إبراهيم حسن .
٩- تاريخ الأمم والملوك " تاريخ الطبري " لمحمد بن جرير الطبري ،ط دار سويدان – بيروت .
١٠- تاريخ اليعقوبي لأحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي البغدادي ط دار الكتب العلمية – بيروت .
١١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد الحنبلي – مطبعة القدسي.
١٢- الطبقات الكبرى لابن سعد .
١٣- الفن ومذاهبه في النثر العربي / شوقي ضيف ط دار المعارف.
١٤- الكامل في التاريخ لابن الأثير الجذري ، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي – ط دار الكتب العلمية – بيروت.
١٥- لسان العرب – جمال الدين بن منظور ط دار المعارف .
١٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر – لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ،شرحه وقدم له مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية – بيروت.
١٧- معجم البلدان – ياقوت الحموي .
١٨- نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده ،ط المكتبة العصرية بيروت.